قصة قصيرة

بلاد اللّه الواسعة

إياس محسن حسن ❖

تبدأ القصيدة الأخيرة لفادي بَهْبَه بعبارة «أكلتُ القطار »

فادي بَهْبَه ضمّ ساقيْه، ثمّ مسّد شاربيْه الخفيفين، ثمّ تمنّى في سرّه لو أنّه حلقهما، ثمّ سُعد لأنّه لم يفعلْ حين تحسّس حبّةَ الشباب التي أخذتْ تَظْهر تحت الشارب الأيسر زمّ شفتيه دون أن يحرّك بصرَه عن وجه مدير التحرير، الذي قطع الحديثَ أكثر من مرّة ليأخذ البريد، ثمّ ليكلّمَ السكرتيرةَ، ثمّ ليردّ على التلفونات المتتالية التي أتته وسأله مرّتين في أية سنة دراسيّة أصبح، ثمّ سأله إنْ كانوا من بَهْبه حمص أمْ من بَهْبه حلب، ثمّ، وهو يعيد السمّاعة آخرَ مرّة، قال: «أنتظر جديدَكَ يا فادي.»

لكنّ فادي بهبه كان جاهزًا لذلك، وسأله: «لماذا؟» ثمّ أردف: «يعني، تمامًا، لماذا؟»

مدير التحرير نظر إليه وبدا الضجرُ على وجهه فادي بَهْبه تابع: «القصيدة تنتظر منذ شهر وأنتَ لا تقول لي شيئًا »

مدير التحرير سأله: «شهر؟ لا بدّ أنكَ قد كتبتَ شيئًا خلالَه!» أراد فادي بهبه أن يجيب، لكنّ مدير التحرير عاجله. «أنا متأكّد من أنّها كبوة، وأنك لا بدّ ستجد أدواتك وصوتَكَ المنفرد.»

فادي بهبه لم يكن قد أتى ليسمعَ ذلك ويشكرَه ويذهب، وأصرّ على أنّ قصيدتَه يجب أن تُنشر أو يجب أن يفهم.

مدير التحرير دفع نفسَه إلى الوراء على ظهر كرسيّه الذي زقزق، وأجال بصرَه في الرفوف المكتظّة حوله، ثم قال له إنه آسف: «آسف حبيبي، لم أكن أريد جرحَ مشاعرك، لكنْ يبدو أنك مصرّ. القصيدة رديئة.» قالها، وهو ينظر إليه نظرةَ المتأسّف، وحنى رأسَه إلى الأمام قليلاً.

فادي بهبه لا تَجْرح مشاعرَه عباراتٌ كهذه، منذ أن قرّر ألاّ يتركَ للآخرين فرصةَ جرح مشاعره كلّما أرادوا. وَهمَّ بأن يذكّر مديرَ التحرير بما قيل لأبي تمّام في زمنه، لكنّه تراجع لم يُرِد استخدامها فورًا، فأجّلها

مدير التحرير، وقد احمرّتْ شفتُه العليا من دون أن يبدو الغضبُ في عينيه، قال له إنّه لا يَفهم: «أكبرُ الشعراء يُلْقون نصفَ قصائدهم، وأكثر، إلى الزبالة، وأنتَ كتبتَ قصيدةً ونصفًا في حياتك وتَصْرع رأسَنا؟ اصبرْ قليلاً. تعتقد أنّ المرء يصبح شاعرًا هكذا يا فادي؟» وحرّك كفَّه أمامه بحركة دائرية سريعة

فادي بهبه كان جاهزًا أيضًا وسأله «لماذا إذن نشرتم الأولى؟»

زفر مديرُ التحرير وقال له: «غلط يا أخي غلطنا، ومنك السماح لن نعيدَها مرّةً ثانية.»

لم يكن فادي بهبه يتوقّع الجواب، فسكت قليلاً. مدير التحرير سكت أيضًا، وقبل أن يفتح فمَه عاجله فادي بهبه: «قصائدكَ ليست أفضلَ منها »

هنا انزعج مديرُ التحرير وسأله: «عمرك قرأتَ لي قصيدةً فيها 'أكلتُ القطار'؟

بدا العجبُ على وجه فادي بهبه ذي الشاربين الأشقرين غير المكتملين ورفع حاجبيْه. «أكلتُ القطار نعم ما الذي يزعجك؟» قال له مديرُ التحرير إنّها أغبى صورة قرأها في حياته فادي بهبه شعر أنّ الأمور بدأتْ تتحسّن وأنّ الحديث بدأ يتّجه إلى حيث يستطيع أن يمدّ فيه.

ـ هذه ليست صورةً بالضرورة. أنا أكلتُ القطارَ، وأتحمّل مسؤوليّةَ ذلك

❖ ـ من كتّاب سورية الشباب، مقيم في فرنسا، وله مجموعتان قصصيّتان يدرّس في جامعة ليون، ويحضّر رسالةَ دكتوراه في الأدب الديني العربي القديم

مدير التحرير ابتسم. وخلال لحظةٍ مَسَحَ أيَّ أثرٍ للبشاشة عن وجهه، وقال له إنّه يضيِّع وقتَه نَبَّهَه فادي بهبه إلى أنّه سيُخْبره بشيء مهمّ، نعم مهمّ، وهو أنه رجل متسلّط يعتقد أنّ بمقدوره ممارسةَ سلطتِه على مشاعر الناس وعلى إحساسهم بما يحيط بهم، كما يمارسها في المجلّة التي حوّلها، هو وأمثالُه من البيروقراطيين المنتفعين، إلى ثكنة أدبيّة

مدير التحرير قال له إنّ «ثكنة أدبيّة» أفضلُ مئة مرّة من «أكلتُ القطار،» ومن كلّ ما كتب ثم صمت فجأةً وهو ينظر إلى أشيائه المبعثرة على المكتب أمامه شعر فادي بهبه أنّ الأمور تحسّنتْ أكثر، فعاجله: «تستطيع أن تستخدمها في مقالتك الأسبوع القادم.»

قفز مديرُ التحرير عن كرسيّه. شعر فادي بهبه أنّ قراءته لأفكاره كانت صحيحة، بينما كان الآخر يستند على المكتب بكفَّيْه كلتيْهما ويقرّب وجهَه إلى الأمام. أنزل فادي بهبه يده التي كان يمسِّد بها شاربه ويتحسس بها وجهَه بعصبيّة، وأسبلها على ذراع الكنبة الجلد، وارتخى في جلسته

ـ أكلتَ القطار، حبيبي؟ أية مشاعر؟ أيُّ إحساس بما يحيطك؟ مَنْ يقرأُك يعتقد أنّك ولدتَ في قطار وسكنتَ في المحطّة وقضيتَ شبابك بين براغ وموسكو »

فادي بهبه فهم أنّ مدير التحرير يتبجّح بسنوات دراسته في موسكو، التي قضاها يتجسّس على زملائه. وتردّد لحظةً في اختيار ردّه قبل أن يقاطعه، ثم قال بصوت بارد: «لم تكن لتجرؤ على قول ذلك عن قصيدة 'مرّ القطار' لمحمود درويش لماذا يا ترى؟ تخاف؟»

قال له مديرُ التحرير إنّ من البذاءة أن يقارن ما يكتبه بتجربة الأستاذ محمود، وإنّ الموضوع تحوّل إلى مهزلة، وأردف: «ثمّ ماذا؟ الأستاذ محمود يَعْرف عمّ يتحدّث. تقارن نفسَكَ بمن قضى نصفَ عمره مشتّتًا في الأصقاع؟» وأعاد «في الأصقاع. أما أنتَ، عمرَكْ شِفِتْ قطار؟ في بلدك قطاران على سكّة واحدة. لو لحستَهما، حتى من دون أن تأكلهما، لخلصنا منك للتوّ. قل لي 'أكلت البسكليت،' 'أكلت الشاحنة،' يا أخي 'أكلت الباص،' لكنْ أكلتَ القطار؟.. ثمّ ماذا ـ وأمسك ورقةً عن المكتب وهزّها في وجهه ـ 'ثمّ بُلتُه ' تأكل وتبول، حبيبي؟ يا للرداءة! لا أصدّق. يا للضعف!»

شعر فادي بَهْبه بغصّة وكاد يقول له إنه مصاب بإمساك منذ أكثر من ثلاثة أشهر، وإنه بالفعل يأكل ويبول، وإنّ الطبيب قال له «مجهول السبب،» وإنّ وصفات الطبيب وأمه وجدّته وجارتهم لم تُسْعفه لقضاء ثلاث دقائق لذيذة في التواليت حاول السيطرةَ على غصّته، وكَرِهَ نفسَه وهو يفكّر بأنّ اللعين نجح في جرح مشاعره ثمّ، كي لا يترك له فرصةَ إدراكِ ذلك، قال بسرعة «لو كنتُ كتبتُ 'ازدردتُ القطار،' أو 'افترستُ القطار' أو 'قرشتُه' أو 'قضمتُه' أو أيَّ شيءٍ آخر غريب بلا معنى، كما يفعل الذين تَنْشر لهم، لأعجبكَ النصّ لكنّه صادقٌ وحقيقي، وأنت. »

مدير التحرير كان قد قام من وراء الطاولة وألقى بالورقة في حضن فادي بهبه وهو يتّجه إلى الباب فتح البابَ وأشار بيده، ثمّ دخل وعاد إلى مكتبه وأخذ يدكّ أوراقًا في الفاكس بيدٍ متشنّجة.

شتمه فادي بهبه وهو يخرج من الغرفة، يقوده المستخدَمُ من كتفِ قميصه الأصفر المقلّم بالأخضر.

نزل الطوابقَ الثلاثة على الدرج، ويدُ الرجل لم تفلتْ قميصَه، حتّى دفعه خارج باب المجلّة إلى الرصيف واستدار عائدًا.

شهق فادي بَهْبه وأحسّ الهواءَ الساخن الجافّ يلدغ رئتيْه. وبدأ العرقُ يتصبّب منه. ضجيجُ محرّكات الميكروباصات ملأ، خلال ثوانٍ، الفراغَ الذي كان يشعر به، ورائحةُ دخان المازوت حرّكتْ في معدته تشنّجات الإقياء التي كانت قد هدأتْ قليلاً بعد أن دخل بناءَ المجلّة. نظر إلى ساعته وبدا عليه الامتعاض لم يقضِ لدى مدير التحرير إلا عشرين دقيقة، ولازال أمامه ساعتان قبل موعده مع بثينة

مشى بضعة خطوات على الرصيف، وشعر بحرارة حجارته تخترق نعلَيه. استدار وعاد نحو باب المجلة الذي انفتح أوتوماتيكيّاً

برودة المكيّفات أوقفتْ شعرات جسمه تحت قميصه الساخن، وأحسّ برجفة. تنفّس الهواءَ المبرَّد بعمق وفكّر، وهو يطلب المصعد، في أنّه، إنْ أحسن التصرّف، فسيستطيع أن يقضي على الأقلّ نصفَ ساعةٍ أخرى على الكنبة في مكتب رئيس التحرير.

غير أنّه كاد يَسْقط من شدّة الدفعة الثانية. تخبّط قليلاً في خطواته مرتعبًا من فكرة أن يقع فيلمسَ حجرَ الرصيف بيديه. وقف المستخدَمُ هذه المرّة عابسًا عند الباب، منتظرًا أن يبتعد. فكّر في أنْ يوزّع الوقتَ الباقي (ساعةً ونصفًا) بين الطريق إلى الجامعة والكافيتيريا، ريثما تخرج بثينة من المحاضرة ألقى نفسَه في أوّل ميكروباص فيه مكانٌ فارغ

انتظر فادي بهبه أن يخلو له مكانٌ إلى جوار نافذة الميكروباص وهو يجيل بصرَه بين الوجوه المتعرّقة الساكتة في ضجيج المحرّك. ثمّ انتبه إلى أنّ قصيدته التي رماها في حضنه مديرُ التحرير مازالت في يده. دعكها ومدّ يدَه من أمام الرجل الجالس إلى النافذة قربه، ورمى بها إلى الخارج شعر بنوع من الارتياح للتخلّص منها لم يَدُمْ إلا ثواني، وتبدّدَ مع الندم الذي شَعَرَ به لأنّه لم يقلْ كلَّ ما كان يجب قولُه في المجلّة: فقد نسي مرّتين أن يحكي حكايةَ أبي تمام والناس الذين لا يفهمون ما يُقال؛ كان بمقدوره، على الأقلّ، أن يكلّمه ربعَ ساعة عن ذلك وندم لأنّه لم يقلْ لمدير التحرير، عندما كلّمه عن قطار موسكو ـ براغ، إنّ زيارتَه لهذه العواصم خسارةٌ لها، وربّما من أحد أسباب نهاية مجدها. وندم فادي بهبه على أشياء أخرى لم يقلها. وتخيّل فادي بهبه البلادَ الكثيرةَ في العالم. وتخيّل الحدودَ خطوطًا زرقاء نافرةً عن الأرض وتخيّل قطاراتٍ كثيرةً تجري عليها وتتمايل دون أن تسقط. وتخيّل نفسَه ينزل في المحطّات في الصباح الباكر، ويتكلّم بالروسية، ويتكلّم بالألمانية، ويتكلّم بالفرنسيّة. وتخيّل نفسَه يتمطّى قبل أن ينحني ليحملَ حقيبتَه ويذهبَ وراء الخارجين من المحطّة من دون وجهة محددة. وتخيّل نفسَه يُلقي مفتاحَ غرفته في الفندق إلى عامل الاستقبال ويخرج إلى مقهى على الرصيف ليتكلّم عن البلادِ والحدودِ والحبِّ والحروب، بينما يخرج البخارُ من فمه وتطير أوراقُ شجرٍ حمراء مع الهواء حوله.

انتبه فادي بهبه إلى أنّه تخيّل الكثيرَ من النساء في المحطّات ولم يتخيّلْ بثينة. وفكّر في أنه ربّما لا يحبّ بثينة. وخاف من الفكرة قليلاً شعر فادي بَهْبه بغصّة عندما فكّر في أنّه لا يستطيع أن يكتب ذلك، وأنّه كلّما جَلَسَ في المقهى ليكتب خَرَجَ من تحت يده عكسُ ما يريد: أشياءُ مركّبةٌ سخيفةٌ، فيرميها. ثمّ فكّر في أنّ المجلّة التي زارها لا تستحقّ أكثرَ من «أكلتُ القطار،» وارتاح لذلك بعض الشيء. وفكّر في أنّه، أساسًا، لا يحبّ أن يكتب، وأنّ الكتابة ملاذُ الفاشلين لتلميع فشلهم ثمّ نظر إلى الساعة وفكّر ببثينة وعرف أنّ بمقدوره أن يمرّ إلى البيت عشرَ دقائق بدلاً من الانتظار في كافيتريا الجامعة. ثمّ فكّر في أن الأمر زاد عن حدّه، وأنّ عليه أن يمرّ إلى البيت عشر دقائق لينهي ذلك.

نزل فادي بهبه من الميكروباص دون أن يتسنّى له الجلوسُ قرب النافذة. وشعر بجلده ينسلق في الدخان الساخن الذي يحيط به. ثمّ ركب في ميكروباص آخر يتجه نحو بيتهم، وتقاتل مع السائق الذي طلب منه أن يقرفص في الممرّ ويعطيَ مقعَده للفتاة التي التقطها عند إشارة المرور بينما الشرطيُّ يصفّر له. قام فادي بهبه وقرفص في الممر وهو يقول للسائق إنّه لن يعطي مقعدَه لأحد، وإنّ هذا غير معقول. ثمّ قال للسائق، وهو ينزل، إنّه بائس ويعيش من أجل خمس ليرات، وإنّه سيموت وهو يجمع خمسَ ليرات من كلّ راكب. شعر فادي بَهْبه بالارتياح بعضَ الشيء لإهانته السائق، خصوصًا أنّ شتيمة السائق لأمّه لم تجرحْ شعورَه أبدًا وعندما وصل إلى بناية بيتهم خلع حذاءه على درج البناية وترك برودةَ البلاط النسبية تتسلّل إلى قدميْه عبر جوربيْه المستعريْن وهو يصعد إلى البيت تناول زجاجةَ الماء من البرّاد وشرب ما فيها. شعر بألمٍ في أسنانه. أمه قالت له ألاّ يشرب الثانية لأنّ أباه سيعود بعد قليل ويحبّ أن يشرب عندما يصل.

سكت فادي بهبه ثمّ سحب قطعةَ فرّوج مسلوق صغيرةً من الطنجرة ووضعها في خبزة، بينما أمّه تقول له إنّها لطبخة الفاصولياء وفكّر فادي بهبه أنّه يكره الأكل، وأنّه يكره تقلّصَ المعدة وتشنُّجَ المري، ويكره الإمساك. ثمّ شعر بالسخط بسبب القنينة الثانية التي يجب ألاّ

يشربها. وهمّ فادي بهبه بمعس سنّ ثوم وأكلِهِ مع الفرّوج، لكنّه فكّر بعواقب الثوم، وقال لنفسه إنّ فرصته الضعيفة اليوم ستتلاشى تمامًا إنْ هو أكل ثومًا. فتراجع وأخذ يأكل الفرّوج مع زيتٍ من دون ثوم. وسأل أمّه، وهو يمضغ واقفًا قرب البرّاد، متى ستزور خالتَه أو عمّتَه أو أيّ أحد. وقال لها إنّه متعب. سألته أمّه إلى أين يريدها أن تذهب في هذا الحرّ؟ قال لها إنّه بحاجة إلى أن يبقى وحده بعضِ الشيء. ردّت أمّه بأنّها وضعتْ أخويْه وأختَه في غرفة واحدة لتترك له الغرفةَ الثانية كي يدرس للجامعة، وها هو يراوح مكانه في السنة الثانية منذ ثلاث سنوات. قال لها إنّه لا يتكلّم عن الجامعة، وإنّ الجامعة سخيفة، وإنّها يجب ألاّ تكلمه عنها ثانيةً.

خرج فادي بهبه من التواليت متألّمًا، وندم لأنه أكل. نظر في مرآة المغسلة إلى حَبّ شبابٍ جديدٍ يخرج عند زاوية أنفه وأسفل ذقنه. شعر بالحقد على بثينة، وقرّر أن يخونَها في أوّل مناسبة. ثمّ شعر بغصّةٍ أقوى في المري وهو يفكّر في الطريقة التي سيخونها بها. ذهب إلى البرّاد، وأخذ زجاجةَ الماء الثانية، وبدأ بشربها. شعر ببطنه ينتفخ وهو يَكْرع ليترَ الماء الثاني، وأراد أن يتوقّف قبل أن ينفجر جوفُه ثمّ رأى أمه تنظر له شذرًا، فعاد واستجمع قواه، وبلع آخرَ قطرةٍ باردةٍ في القنين. شعر بمعدته وقد أصبحتْ كقطعةِ حجرٍ وهو يلبس حذاءه الذي كان لا يزال ساخنًا. انسلّ من البيت

فكّر فادي بَهْبه في أنّ ازدحام الطريق لن يَسمح له أساسًا بالوصول إلى الجامعة عند نهاية محاضرة بثينة وفكّر في أنّه لا يريد أساسًا أن يرى بثينة التي لن تأتي إلى بيتهم. وشعر مرّةً أخرى بالندم لأنّه لم يتمكّنْ من تقبيلها كما كان يحبّ أن يفعل، فقَضَم لسانَها، وصرختْ في فمه، ثمّ قالت له في اليوم التالي إنها مازالت تحبّه مع ذلك، وقال لها إنّه لم يكن يقصد وفكّر في أنّه أضاع فرصتَه معها مرّةً واحدة وإلى الأبد بسبب عضةِ لسان وفكّر في أنّه لا يستطيع أن يتكلّم عن الحبّ معها، وأنّه كلّ مرّةٍ يجد نفسَه يقول لها «أحبُّكِ كثيرًا» و«أحبُّك جدّاً» و«أحبُّك أكثرَ من...»

ملأه الإحساسُ بالفشل، وقرر أن يذهب إلى المقهى وأن يكتب لها شيئًا حقيقيّاً

لم يُرِدْ أن يركب الميكروباص ثانيةً، فمشى وشعر بشمس الثانية بعد الظهر تشوي شعرَه الخفيف. وفكّر في أنّه قد يَصْلع قبل الأوان. وخاف من ذلك. وتخيّل فادي بَهْبه قطاراتٍ تشقّ المدينةَ مسرعةً، وتطيح بالسيّارات المكتظّة في شارع بغداد من أوّله إلى ساحة السبع بَحْرات، تدحرجها يمينًا ويسارًا. وتخيّل الهواءَ يتخلخل من عبورها ويَلْفح وجهَه وتخيّل البنات واقفاتٍ على الأرصفة، والدهشةُ في عيونهنّ، وهنّ يمسكن فساتينهنّ كي لا يطيّرها الهواءُ، وشعورُهنّ تتبعثر يمينًا ويسارًا. وتخيّل مساءً سوادُه برّاقٌ شفيف، والقطارات خطوطًا ملوّنةً تعبره في كلّ الاتجاهات كالشهب ملاصقةً للأرض. وتخيّل نفسَه يقول لبثينة إنّ حبّه بعيد منه، وإنّ المسافة تسيل من حلمه. واستحسن ذلك وقرّر ألاّ يكترث لكونها لن تكترث لما سيقول.

مشى فادي بهبه شارعَ بغداد كاملاً، وعَبَرَ ساحةَ السبع بحرات من وسطها بين السيارات كي يقصّر الطريقَ قليلاً السيّارات والميكروباصات العالقة وسط الساحة زمّرتْ له، فيما هي تزمّر لأشياء أخرى دخل في شارع العابد الضيّق حيث يختنق السير، وحاول أن يحتمي بالظلّ تحت البنايات. أحسّ الحرارة تزداد في شارع العابد. وفتح فمَه ليتنفّس أكثر انتبه إلى أنّ الأفق في صدر الشارع يتماوج من الحرارة الخارجة من الإسفلت ومن المحرّكات رأى السيّارات تتقدّم ببطء ببطء، ومحرّكاتها تئنّ أسرع فادي بَهْبه في خطواته مرّ من أمام المقهى ولم يدخل وأحسّ بنَفَسِهِ يكاد ينقطع.

رأى فادي بهبه نفسَه ينزل عن الرصيف الضيّق ويمشي في وسط الشارع وسمع السيّارات تزمّر له بحنق رأى نفسَه يُسْرع في خطواته نحو إشارة المرور عند تقاطُع شارع الحمراء ورأى نفسه يَدْفع الشرطي الذائبَ في بذلته الزيتيّة ويقف وسط الشارع معطيًا وجهَه للسيّارات، ثمّ يفتح فمه. أخذ فمُ فادي بهبه يَكْبر، وتدلّى فكُّه إلى الأرض، واتّسع حلقُه. وشعر بحرارة الإسفلت تُحْرق ذقنَه ولسانَه الذي مدّه على الأرض أخذت السيّارات تتقدّم وتصعد على لسان فادي بَهْبه وتدخل في فمه. وأخذ فادي بهبه يبتلع الميكروباصات

والسيّارات من كلّ نوعٍ وكلّ لون وشعر بمعدته تتحجّر، لكنّه لم يجد في ذلك سوءًا. ثمّ شرق شرقةً قويّةً رأى معها حبلَ حديدِ السيّارات، المتّصل من شارع العابد إلى ما وراء ساحة العبّاسيين، ينجرّ نحوه وينزلق إلى معدته ورأى شارعَ العابد يخلو تمامًا مع آخر ميكروباص شرَقَه. ثمّ استدار ونظر إلى السيّارات وراءه وهي تحاول الفرارَ منه وتزمّر بشكل هيستيري، ففتح فمه فتحةً كبيرةً وشرقها مرّةً واحدة تمطّى، وشعر بالهواء أخفّ. ثمّ رأى الشرطي ينظر إليه مرتعدًا، فضحك. فتح ذراعيْه وسط الشارع وضحك أكثر. ولعلعتْ ضحكتُه في السكون الذي حلّ على شارع العابد وأحسّ بهواءٍ لذيذٍ يمرّ على وجهه، وهو يمشي متمايلاً وسط الشارع ورأى أوراقَ شجر حديقة البرلمان تهتزّ مع الهواء. ثم انتبه إلى الناس يُطلّون برؤوسهم من أبواب المحلاّت ومن الشبابيك وعن الشرفات وينظرون إليه بذعر ورأى صفّاً طويلاً من عيون أعضاء مجلس الشعب المدهوشة تنظر إليه بتوجّس، وهم يطلّون بأنصاف رؤوسهم من فوق سور حديقة البرلمان. فتح فادي بَهْبه فمَه وتجشّأ، فخرجتْ من جوفه قعقعةُ حديدٍ وأصداءُ زمامير. وأخذ الناس يهمهمون وهم يفرّون منه فضحك أكثر. وفكّر في أنّه سيسافر بعيدًا ويحفر حفرةً كبيرةً ثمّ يقرفص ويُخْرج فيها كلّ ذلك ويطمره. ثمّ شعر فادي بَهْبه بألمٍ في أمعائه. وتذكّر أنّه لن يستطيع أن يُخْرج كلّ ذلك إنْ لم يذهبْ إمساكه. وشعر بالتعاسة. وملأ أذنيْه هديرُ المحرّكات تمرّ ببطء شديدٍ في الشارع أمامه وهو يحدّق فيها واقفًا على الرصيف. وكاد يغمى عليه وأحسّ بقميصه المبلّل بالعرق يلتصق بظهره ويتجعّد تحت إبطيه. وقرر أن يذهب إلى المقهى ويشرب كأسَ ليمونادة ويكتب شيئًا لبثينة عن الحبّ أو عن السيّارات أو عن الحدود أو عن أيّ شيء.

استدار بسرعة مرتطمًا بامرأة تتصبّب عرقًا تحت حجابها الأبيض، وكاد يُسْقطها على الأرض. شتمته السيّدة، ولم يتوقّف فادي بهبه ليعتذر، بل أسرع إلى المقهى. ولم يكد يمشي عشرة أمتار حتّى سمع صوتًا غريبًا فوق رأسه ولم يكد يرفع رأسَه ليرى أنّ شرفةً في الطابق الثاني تنفصل عن البناء وتسقط عليه، حتّى كانت الحجارةُ تطرحه أرضًا. حاول فادي بهبه الإفلات بأنْ يتدحرج إلى الشارع، لكنّ خطوتَه لم تَكْفِه وتمكّنتْ حجارةُ البلكون وغيمةُ غباره الهائلة من تغطيته تمامًا. سمع فادي بهبه الناسَ من وراء الركام يصيحون أنِ «اطلبوا الإسعافَ» وسمع الذين يصلون يسألون عمّا حصل. وسمع في ضجّتهم صوتَ المرأة التي كان قد اصطدم بها والتي شتمته منذ ثوانٍ تقول: «سبحان الله!» وسمع فادي بَهْبه الناسَ يقولون أشياء كثيرة عن البلكون وعنه. وسمع صوتَ لاسلكيّ شرطي المرور يصفّر وندم فادي بَهْبه لأنّه جاء إلى شارع العابد.

توقّف السير في الشارع وتلاصقت السيّاراتُ أكثر وهي تقترب من كومة الحجارة عند طرف الشارع. سمع فادي بهبه من تحت الركام صوتَ المحرّكات أقوى وشعر بحرارة الأرض تحت جسده، وحاول أن يُبْعد يديْه وخدَّه عن الإسفلت، فلم يتمكّن. وسمع صوتَ السيّارات التي توقّفتْ تزمّر بإلحاح من بعيد. ثمّ سمع صوت الزمامير يتّصل من بعيد، فأقرب، فأقرب. وبدأت السيّاراتُ القريبة تزمّر له وللبلكون. وأدرك فادي بهبه أنّه يموت. وفكّر في أنّه قد يذهب إلى جهنّم كما قالت له أمُّه. وتخيّل حديدًا كثيرًا مدعوكًا مكوّمًا هناك، وملائكةً محمرّةً الوجوه تدحرجه ببطء.

أراد فادي بهبه أن يولول، فلم يَخْرج صوته وأحسّ بالغبار ساخنًا يتكسّر في أنفه وفمه وهو يحاول أن يشهق، ثمّ بنَفَسِهِ ينقطع

ليون